

## سمير قصير... شهيدا... مثقفون يشهدون من باريس - الفارس القتل مترجلا

بيار أبي صعب

حين عاد سмир قصير من هجرته الباريسية، مطلع التسعينات، ليستقر في بيروت، لم يكن يعرف أنه، مثل أبطال المآسي الإغريقية، يلعب مصيره وحياته بضربة واحدة، ويقترب من نهايته التراجيدية: إنه أوليس العائد إلى ايثاكا بحثاً عن زمنه الضائع

كيف يترك مثقف مثلك معقله الباريسي يا سмир؟ هل تستطيع أن تعيش في بيروت الضيقة، الخارجة من حرب منهكة حطمت بناها، وشوشنت ذاكرتها، وحاصرت نخبها في دوائر أوهمهم وتنازلاتهم؟ كان بيتسم كالعارف: هناك دور يريد أن يلعبه، ومكانة يطمح إلى احتلالها، واعتراف يستحقه أكثر من أي فرد آخر في جيله العالق بين زمنين. لقد عاد ليحارب مثل دونكيشوت، طواحين الهواء، أي البنى السياسية البالية المرتنهة لشتى أنواع الوصاية، تلك البنى التي وقع في فخها لاحقاً الموت في بيروت، مثل مارون بغدادي ورالف رزق الله وآخرين، ولكن على طريقته الخاصة، طريقة الساموراي. لقد جاء سмир إلى بيروت شاهراً براعته، ومشروعاً أوهامه وطموحاته، جاء ليناضل، ليعيش قصة حب غريبة ومدهشة، وجاء ليموت، مثل البروفسور أيشنباخ، بطل توماس مان، جاء يشهد انتهاء مرحلة وولادة أخرى في زمن الأوبئة والإنهيارات، لكن بيروت الجمهورية الثانية ليست البندقية، والزمن الجديد... لن يأتي، أو على الأقل لن تراه، ولن نراه في أيامنا. وحدها الطوائف والعشائر والمناطق والدكاكين، سنتقاسم المشهد السياسي، وتحدد ملامح الدولة... وحدهم المقاولون، وتجار الحرب والسلام، وسائر المرتزقة سيصنعون المستقبل، من دونك، من دوننا يا سмир، إنك المثقف الذي احترق بنار أوهامه، حين أراد أن يخوض في السياسة، بطوباوية وراдикаلية لا يتسع لهما الواقع.

إن الكاتب الشاب المتأمل في 'الشقاء العربي'، والمؤرخ الذي عانق بيروت ودون تاريخها، نموذج المثقف العربي، الملتزم، صاحب المشروع النهضوي والوطني والقومي، أصر حتى الرمق الأخير على الدفاع عن قيمه، بحدة وبسالة، هو الآتي إلى مقارعة 'وصاية الأشقاء'، لا من منطلق 'عصبي' وفئوي ضيق، بل من موقع صاحب مشروع نهضوي عربي، عينه على فلسطين، ويده بيد رفاقه وأنداده في دمشق. أعاب عليه بعض رفاقه أحياناً 'تهوره' في اختيار معسكره وحلفائه، لكن أحداً لا يسعه أن ينكر استبساله في الدفاع عن استقلال المؤسسات وسيادة دولة القانون... عن الحرية والديمقراطية.

عاش سмир قصير أكثر من حياة في سنوات قليلة، حاسمة من تاريخ لبنان الحديث. مسيرة متميزة، فريدة، متأقفة، نزقة، صاحبة سياسيا ومهنية، وخصبة فكريا وابداعيا، حافلة بالمواجهات والمعارك، بالأحلام السياسية والطموحات الذاتية، إنها مسيرة استثنائية توجهتها النهاية المفجعة... نهاية المثقف الذي التقط 'لوثة اليسار' في اللبسيه الفرنسي في بيروت... وبدأ مهتماً بالمسرح البريختي وأفلام الواقعية الجديدة في إيطاليا والموجة الجديدة في فرنسا، ما الذي أخذك من غودار وبريخت وروسيليني إلى السياسة؟... بعد الطائف، عاد المثقف والصحافي الذي برز كاتباً ومحللاً في دوريات عربية وفرنسية من باريس، ليدبر داراً للنشر (النهار)، ويؤسس مجلة شهرية طليعية فريدة في تاريخ الصحافة اللبنانية، إنها 'أوريانت إكسپرس' التي 'عربت' الفرنكوفونية ووسعت آفاقها وفتحتها على العصر، قدم برنامجاً سياسياً على التلفزيون اللبناني لم يلبث أن أوقف لجرأته ('من دون تحفظ')، خاض معركة دعوة مثقفين يهود، معادين للصهيونية (بعضهم عرب) إلى 'مسرح بيروت'، وكتب حينذاك معرياً 'هواة الوشاية القومية'. وعندما سعد نقده للسلطة القائمة، في جريدة 'النهار' البيروتية، اكتشف ابن الأشرافية أنه ليس لبنانياً، بل فلسطينياً، وسحبت السلطات جواز سفره، وطارده رجال المخابرات.

في الأشهر الأخيرة، لا شك في أن سмир قصير عاش نشوة حقيقية خلال ما اعتبره 'الربيع العربي'، وتلذذ في ما اعتبره - متسرعا بعض الشيء - انتصار قضيته. هل أغفل المثقف الحالم والمثالي، فجاجة الواقع؟ هل أنت مقتنع أن لبنان يمكن أن يتغير يا سмир، ب'احتلال' أو من دون 'احتلال'؟ ها هو الفارس القتل يترجل... ومن حوله المتاجرون بدمه. ذلك أن سмир قصير لا ينتمي إلى فئة، أو طائفة سياسية، أو عصبية، أو منطقة. إنه العربي التائه الذي عاش ومات في الأشرافية... أو كما طوبه إلياس خوري في قصة شهيرة، 'الجبل الصغير'!

الموضوع : عام

المصدر : الحياة

---